الاسترجاع عند الطاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير دراسة مقاصدية

د/ وليد مشهور عبد التواب فارس(*)

ملخص البحث

يتناول هذا البحث موضوعًا هامًا إلا هو الاسترجاع وبيان مقاصده عند علم من أعلام التفسير في العصر الحدث، وهو الإمام الطاهر ابن عاشور، وتظهر أهمية هذا البحث من خلال مكانة الإمام ابن عاشور وكتابه، واهتمامه البالغ ببيان مقاصد الشريعة عند تفسير للآيات، وجاء البحث ليوضح مقاصد الاسترجاع عنده سواء كان صريحًا أو ضمنيًا، حيث شمل تفسيره للآيات الكثير من المقاصد الشرعية، وجاءت نتائجه علي النحو التالي: اهتم الشيخ الطاهر ابن عاشور بعلم بمقاصد الشريعة اهتمامًا كبيرًا، ويظهر ذلك من خلال ربطه لتفسير الآيات بمقاصد الشريعة، تبين من خلال البحث أهمية الاسترجاع، وما يجب علي الإنسان عندما يعرض له ما كتبه عليه من الأقدار والمصائب، ربط ابن عاشور الاسترجاع بجل مقاصد الشريعة.

الكلمات المفتاحية: الاسترجاع، ابن عاشور، مقاصد، التحرير والتنوير، حفظ النفس.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، أنه من يهديه الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وان محمدا عبده ورسوله، ﷺ، وعلى آله وصحابته الغرر الميامين، وعلى من سار على دربهم ومنوالهم إلى يوم الدين.

ثم أما بعد:

فإن الاسترجاع عند الابتلاءات التي تعرض للإنسان من الأمور المستحبة شرعًا، وأَول الإمام الطاهر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير الاسترجاع اهتماما كبيرُا وذكر مقاصده سواء كان هذا الاسترجاع صريحًا، أو ضمنيًا لذلك جاء هذا البحث تحت عنوان: « **الاسترجاع عند الطاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير دراسة مقاصدية** ».

وجاءت أسباب اختبار الموضوع وأهميته علي النحو التالي:

(*) مُدَرِّس الفقه الإسلامي وأصوله قسم الدراسات الإسلامية ــ كلية الآداب ــ جامعة المنيا

١ – مكانة تفسير ابن عاشور العلمية.

٢– اهتمام الإمام ابن عاشور بالمقاصد في تفسيره للآيات.

٣ – بيان فضل الاسترجاع، وأهميته في حياة الفرد والمجتمع .

الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع والتدقيق والبحث لم أجد دراسة تناولت الاسترجاع عند الطاهر ابن عاشور من خلال تفسيره ، إلا بعض الدراسات والأبحاث العلمية التي قامت علي دراسة المقاصد عند الإمام الطاهر ابن عاشور، ومن هذه الدراسات ما يلي:

١ – **الضوابط التي اعتمدها الإمام ابن عاشور في التأويل المقاصدي في كتابه التحرير والتنوير**، إعداد: إسلام سعد عبد القادر يونس، بحث علمي منشور بمجلة كلية الآداب جامعة طنطا، العدد ٥٢، لسنة ٢٠٢٣.

تناول فيه الباحث: منهج ابن عاشور في التأسيس لعلم مقاصد الشريعة وأثره في تفسيره، والعناية بإبراز المعنى العميق للمفردة القرآنية، وتدبر دلالاتها. ومن خلال: العناية بالقراءات، العناية بأسباب النزول، العناية بالكشف عن أغراض السور، العناية بالمناسبة بين الآيات والسور، العناية بحكمة التشريع الإسلامي وصولا إلى المقصد الشرعي.

ولم يتعرض الباحث إلى الاسترجاع ومقاصده.

٢ – **مقاصد القرآن الكريم عند الإمام الطاهر ابن عاشور في تفسيره دراسة نظرية مع نماذج تطبيقية**، إعداد: سفيسيفي عبد الرحيم، تحت إشراف بولخراص كريمة، قسم العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان، تخصص : تفسير وعلوم القرآن، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في العلوم الإسلامية، ٢٠١٥ – ٢٠١٦م.

تناولت الباحثة في التمهيد التعريف بمقاصد القرآن، والإمام ابن عاشور وكتابه، أما الفصل الأول: فخصصته للدراسة التأصيلية لمقاصد القرآن، وضمنته مبحثين الأول: عن تقسيمات مقاصد القرآن عند العلماء وأهميتها والثاني: عن منهج بيان مقاصد القرآن عند ابن عاشور، وتطرقت في الفصل الثاني إلى توظيف مقاصد القرآن في تفسير التحرير والتنوير، وقسمته إلى مبحثين أيضا. أما الأول: فعن مظاهر إعمال مقاصد القرآن عند ابن عاشور والثاني عن نماذج لتأثير مقاصد القرآن في تفسير "التحرير والتنوير".

ولم تتعرض الباحثة إلى الاسترجاع ومقاصده.

منهج البحث:

اعتمدت على المناهج البحثية الآتية:

المنهج الاستقرائي: من خلال استقراء كتاب التحرير والتنوير، وذكر مواضع الاسترجاع.

أما المنهج التحليلي: من خلال تحليل أقوال الإمام في المسألة وبيان مقاصد الاسترجاع من كلامه، ومن أجل ذلك قمت بعمل الخطوات الآتية:

١ – استقراء كتاب التحرير والتنوير.

٢ – توثيق النصوص والأحاديث والآثار من مواضعها الرئيســـة، وقد حاولت قدر المستطاع الاعتماد على المصادر الأصيلة، سواء في الكتب المعتمدة من التفاسير، أو التراجم، أو متون السنة.

٣ – اعتمدت في تخريج الأحاديث والآثار التي ذُكرت في البحث على الصحيحين، وإذا لم يكن الحديث موجودا في الصحيحين، قمت بتخريجه من كتب السنة المختلفة مع ذكر درجة الحديث.

٤ – عزو الآيات إلى مواضعها في المصحف مع ذكر اسم السورة ورقم الآية، وفق مصحف المدينة المنورة.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث ان يكون في مقدمة ومبحثين وخاتمة.

اشتملت المقدمة على: عنوان البحث، وأسباب اختياره وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.

المبحث الأول: التعريف بمفردات عنوان البحث، وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: تعريف الاسترجاع، ومشروعيته ومواطنه.

المطلب الثاني: ترجمة الإمام الطاهر بن عاشور

المطلب الثالث: التعريف بتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور

المبحث الثاني: الاسترجاع مواضعه ومقاصده عند ابن عاشور..

المطلب الأول: الاسترجاع الصريح ومقاصده.

المطلب الثاني: الاسترجاع الضمني ومقاصده.

المبحث الأول

التعريف بمفردات عنوان البحث

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الاسترجاع، ومشروعيته ومواطنه

الاسترجاع لغة:

الاسترجاع أصله فعله رجع بالتشديد، بمعنى رجع وأعاد وانصرف، والألف والسين والتاء للطلب، استرجعَ يسترجع، استرجاعًا، فهو مسترجِع، والمفعول مسترجَع (للمتعدِّي)، واسترجع، وأرجع، وتَرَجَّع الرجل عند المصيبة: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون[١]، قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «والاسترجاع أن تقول: إنا لله وإنّا إليه راجعون»[٢].

اصطلاحًا :

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للاسترجاع عن معناه اللغوي هو أن يقول الإنسان عند مصابه: إنا لله وإنا إليه راجعون [٣]، وهناك معنى ثان للاسترجاع عند

---

(١) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت،ط٣، ١٤١٤ هـ، ٨ / ١١٧، تاج العروس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الزَّبيدي المحقق: الناشر: دار الهداية (٢١/ ٧٦)، الصحاح للجوهري، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، صـ ٤٢٩ ، القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، صـ ٦٢١، مختار الصحاح للرازي، ، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ١٣٥، المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ٢٠٩.

(٢) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال (١/ ٢٢٦)

((٣)) العناية شرح الهداية محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين البابرتي الناشر: دار الفكر الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ (١/ ٤٠٢) ، حاشية الصاوي على الشرح الصغير = بلغة السالك لأقرب المسالك أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي الناشر: دار المعارف الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ (٤/ ٧٨٤)، معجم لغة الفقهاء محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م (ص: ٦٠)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)،

الفقهاء يقصد الاسترداد، ومن ذلك قولهم: للمشتري – بعد فسخه بالعيب – حبس المبيع إلى حين استرجاع ثمنه من البائع، أو في الزكاة او في الوصية[1].

ومشروعيته: دل عليه الكتاب والسنة:

أما الكتاب: قول الله عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ البقرة: ١٥٥ – ١٥٧

وجه الدلالة:

عن عبد الله بن عباس في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ، قال: أخْبَر اللهُ أنّ المؤمن إذا سَلَّم لأمر الله، ورجَّع، واسترجع عند المصيبة؛ كتب الله له ثلاثَ خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبل الهدى. وقال رسول الله ﷺ: «مَنِ استرجع عند المصيبة جَبَر اللهُ مصيبته، وأَحْسَنَ عُقْباه، وجعل له خَلَفًا صالِحًا يرضاه»[2].

تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ٢ / ٢٠٢.

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بـ «بملك العلماء» (ت ٥٨٧ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٣٢٧ – ١٣٢٨ هـ، ١ / ١٧٥، الذخيرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت ٦٨٤هـ)، دار الغرب الإسلامي– بيروت، ط١، ١٩٩٤ م، (١٠/ ٣٦٠)، المجموع شرح المهذب»، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة التضامن الأخوي – القاهرة، ١٣٤٤ – ١٣٤٧ هـ (٦/ ٢٣٠)، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي (٧١٧ – ٨٨٥ هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، ط١، ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م، (٤ / ٤٣٥)

(٢) موسوعة التفسير المأثور، إعداد: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية إشراف أ. د. مساعد بن سليمان الطيار – د. نوح بن يحيى الشهري، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي– دار ابن حزم – بيروت، ط١، ١٤٣٩ – ٢٠١٧ (٣/ ١٩٠).

ـقال ابن الجوزي: «﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ يريدون نحن عبيده يفعل بنا ما يشـــاء، وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، يريدون: نحن مقرّون بالبعث والجزاء على أعمالنا، والثواب على صبرنا. قال سعيد بن جبير: لقد أُعطيتْ هذه الأمة عند المصيبة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾. ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب، إذ يقول: يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ[1]، ..... قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾. قال ســـعيد بن جبير: الصـــلوات من الله: المغفرة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ بالاسترجاع»[2].

وقال ابن كثير بعد تفسيره هذه الآيات «وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة »[3].

ومن السنة:

– بوب الامام أبو داود في سـننه بابًا عنوانه: «بَابٌ فِي الِاسْـتِرْجَاعِ»[4]، وكذلك أبو الحسن الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد بوب بابًا: الاسترجاع وما يسترجع عنده[5].

– أما الأحاديث فقد جاء في حديث حادثة الأفك عن عائشـــة رضـــى الله عنها قالت: ..... وكَانَ صَـــفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّـــلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ،

(١) أخرجه ابن جرير ٢/ ٧٠٨، وابن أبي حاتم ١/ ٢٦٥ واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦٩١). وعزاه السيوطي إلى وكيع، وعبد بن حميد، بلفظ: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة شيئًا لم تُعْطَه الأنبياء من قبلهم، ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب.

(٢) زاد المسير في علم التفسير (١/ ١٢٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢).

(٤) سنن أبي داود، (٥/ ٣٨).

(٥) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٢/ ٣٣٠)

فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ....."[1].

وجه الدلالة

قال النووي: «اسْتِحْبَابُ الِاسْتِرْجَاعِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي الدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ أو من يعز عليه»[2].

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. اللهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَعْقِبْنِي خَيْراً مِنْهَا، إِلَّا فَعَلَ اللهُ ذلِكَ بِهِ»[3].

وجه الدلالة: يبين هذا الحديث فضل الاسترجاع عند المصائب.

- عن أَبي موسى رضي الله عنه: أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولونَ: نَعَمْ. فيقولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولونَ: نَعَمْ. فيقولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فيقولونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فيقول اللهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا في الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[4].

وجه الدلالة:

قال الطيبي: «مرجع السؤال إلي تنبيه الملائكة علي ما أراد الله سبحانه من التفضل علي عبده الحامد؛ لأجل تصبره علي المصائب، وعدم تشكيه، بل إعداده

---

[1] أخرجه البخاري كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، (٢٦٧٨)، ٣ / ٥٠٨، ومسلم في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف، (٢٧٧٠)/ ٤ / ٢١٢٩.

[2] شرح النووي على مسلم (١٧/ ١١٦)

[3] رواه مسلم (٩١٨) كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند المصيبة. ومالك ١/ ٣٨٩ (٩٨٥) كتاب: الجنائز، باب: الحسبة بالمصيبة، وأحمد ٦/ ٣٠٩، والطبراني ٢٣/ ٢٦٢ (٣٥٥٠)، والبيهقي ٤/ ٦٥ كتاب: الجنائز، باب: الرغبة في أن يتعزى بما أمر الله تعالى به من الصبر والاسترجاع، ورواه أيضًا في "الشعب" ٧/ ١١٨ (٩٦٩٧) باب: في الصبر على المصائب.

[4] أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤١٥ ضمن مسند أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في السنن ٣/ ٣٤١ كتاب الجنائز (٨)، باب فضل المصيبة إذا احتسب (٣٦)، الحديث (١٠٢١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وفي سند الحديث أبو سِنان وهو: عيسى بن سِنان القَسْمَلي قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب ٢/ ٩٨: (لين الحديث).

إياها من جملة النعماء التي يستوجب الشكر عليها ثم استرجاعه، وأن نفسه ملك الله وإليه المصير في العاقبة»[١].

أما مواطن الاسترجاع:

١- عند كل ما يبتلى به الإنسان من مصائب، عظمت أو صغرت. قال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ البقرة: ١٥٦ – ١٥٧.

٢- عند كل شيء يؤذي الإنسان ويضره؛ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا "، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: «أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ»((٢)).

٣- عند وصول الاخبار السيئة قال الإمام الكاساني: "«وكذلك إذا أخبر– أي المصلي– بخبر يسوءه فاسترجع لذلك فإن لم يرد به جوابه لم يقطع صلاته وإن أراد به الجواب قطع؛ لأن معنى الجواب في استرجاعه أعينوني فإني مصاب ولم يذكر خلاف أبي يوسف في مسألة الاسترجاع في الأصل، والأصح أنه على الاختلاف ومن سلم فرق بينهما فقال: الاسترجاع إظهار المصيبة وما شرعت الصلاة لأجله فأما التحميد فإظهار الشكر والصلاة شرعت لأجله»[٣].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)،شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣ هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض)، ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م، (٤/ ١٤٢٣).

((٢)) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، بَابُ مَا يُقَالُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، برقم(٩١٨) صحيح مسلم (٢/ ٦٣١).

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (١/ ٢٣٥).

أما كيفية الاسترجاع:

قال ابن كمال باشا: « وليس الصبر بالاسترجاع باللسان فقط، بل لا بد معه من الإذعان بالجَنان»[1]. فهو إما باللسان، وبالقلب[2]:

أ – أما اللسان، وهو أن يقول عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون. وهذا مستحب.

ب – أما القلب، وهو الاستسلام والصبر والتوكل، وما يتبع ذلك، وهذا واجب.

المطلب الثاني: ترجمة الإمام الطاهر بن عاشور

اسمه ونسبه ومولده:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، المشهور بالطاهر بن عاشور، الإمام الضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية[3].

وينتمي ابن عاشور إلى نسب عريق؛ حيث أن جده للأب[4] من أعلام علماء تونس، وجده للأم هو الوزير الأكبر الشيخ محمد العزيز بوعتور[5] (١٢٤٠ هـ–

---

(١) تفسير ابن كمال باشا، شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي الحنفي (ت ٩٤٠ هـ في القسطنطينية)ـ تحقيق ماهر أديب حبوش، مكتبة الإرشاد، إسطنبول – تركيا، ط١، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨ م (١/ ٣٥٠)

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣/ ٢٨٢),

(٣) من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، د بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، صـ ٣٥.

(٤) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور الشريف، (١٢٣٥ – ١٢٨٤ هـ) (١٨١٥ – ١٨٦٨ م) أصل سلفه من الأندلس، ثم هاجروا إلى سلا بالمغرب الأقصى ثم انتقلوا إلى تونس، قرأ بجامع الزيتونة فأخذ عن أعلامه المشاهير، وأقبل بجد على طلب العلم، وبعد تخرجه تصدر للتدريس بجامع الزيتونة، وفي سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، سمي مدرسا من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وأقرأ النحو، والبلاغة والأصول، والأدب ولما ذاع صيته بعد زمن قليل رام المشير الأول أحمد باشا باي تقديمه لخطة القضاء، ينظر تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ (المتوفى: ١٤٠٨ هـ)دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط ٢، ١٩٩٤ م، ج ٣، ص ٣٠٠.

(٥) محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب ابن الوزير محمد بن محمد بو عتور الصفاقسي التونسي، (١٢٤٠ – ١٣٢٥ هـ = ١٨٢٥ – ١٩٠٧ م) وزير، من العلماء الكتاب. أصله من صفاقس، من بني الشيخ عبد الكافي العثماني (نسبة إلى عثمان بن عفان) ومولده ووفاته بتونس. ولي الكتابة في حكومتها سنة ١٢٦٢ هـ وتقدم، فكان كاتبا خاصا لأسرار الملك، وأحد أعضاء مجلس الشورى الخاص. وكانت الخطب الملكية والرسائل الهامة والمنشورات كلها من إنشائه. وكان من العاملين في تأسيس المدرسة الصادقية وجمعية

١٣٢٥هـ)، الذي تولَّى الوزارة الكبرى بتونس، وتحقَّقت على يديه إصلاحات نالت إعجابَ الوزراء وتقدير الأمراء.

ولد العلامة ابن عاشور في ضاحية المَرْسى، قرب العاصمة التونسيَّة، في شهر جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ ، الموافق سبتمبر ١٨٧٩م، في قصر جده للأم الوزير الأكبر الشيخ محمد العزيز بوعتور، فِي أسرة علمية عريقة تمتد أُصُولهَا إِلَى بِلَاد الأندلس، وَقد اسْتَقَرَّتْ هَذِه الأسرة فِي تونس بعد حملات التنصير ومحاكم التفتيش، الَّتِي تعرض لَهَا المسلمون ببلاد الأندلس.

وتعد فترة ميلاده فترة تاريخية حافلة، تموج بدعوات إصلاحية وتجديدية، كان الهدف من هذه الدعوات: إخراج الدين وعلومه من جمود التقليد إلى رحابة التجديد والإصلاح، وكذلك قيادة الأوطان من مستنقع التخلف والاستعمار، نحو التقدم والحرية والاستقلال.

وفاته:

تُوفِّي الشيخ العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور عن أربع وتسعين سنة، في ضاحية المَرْسَى قرب تونُس العاصمة، يوم الأحد ١٣ من رجب سنة ١٣٩٤هـ، الموافق ١٢ من أغسطس ١٩٧٣م.

مؤلفاته:

تنوعت مؤلفات الإمام ابن عاشور لتشمل فنونًا عديدة كالتفسير، والحديث، والأصول، والأدب، واللغة، والتاريخ والتراجم، وتميزت كتاباته بنظرة عقلية فلسفية، وأسلوب أدبي رصين، يصحبهما روح المصلح، وعقلية الرجل المعاصر ((١)).

المطلب الثالث: التعريف بتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور

الأوقاف، وفي تنظيم المحاكم الشرعية وسن قانون العدول. ثم تقلد منصب الوزارة الكبرى سنة ١٣٠٠ فقام بالأعباء قياما حسنا. ولما توفي أمر المولى (محمد الناصر باي) بدفنه في مقبرة الأسرة المالكة الأعلام للزركلي، ٦/٢٦٨.

(١) محمد الطَّاهر ابن عاشُور، علَّامة الفِقه وأُصوله والتَّفسير وعُلومه، إياد خالد الطَّبَّاع، وهو الكتاب رقم (٢٦) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم) التي تصدرها دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.صـ٢١، وما بعدها بتصرف.

يعد تفسير "التحرير والتنوير" للإمام محمد الطاهر بن عاشور من أبرز التفاسير القرآنية في العصر الحديث، ويحمل الكتاب اسمًا كاملاً هو: "التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد". وقد وضعه مؤلفه ليكون تفسيرًا جامعًا بين الأصالة والتجديد، مستجيبًا لمتطلبات عصره في فهم القرآن الكريم. يتميز الكتاب بمنهجه المتوازن للذي يهدف إلى تحرير معاني النصوص القرآنية من التفسيرات الخاطئة، مع تسليط الضوء على الأبعاد البلاغية واللغوية التي تُبرز إعجاز القرآن.

انطلق ابن عاشور في تأليفه من رؤية شاملة للقرآن باعتباره كتابًا هاديًا للعقل والفكر، وليس مجرد نصوص تتعلق بالأحكام أو العقائد فحسب. ولذلك، جمع بين التحليل اللغوي العميق، والبحث البلاغي للدقيق، والتأمل الفكري للذي يتجاوز ظاهر النصوص إلى معانيها العميقة، مما جعل تفسيره مرجعًا للمفكرين والباحثين.

يتناول الكتاب تفسير القرآن الكريم بأسلوب تحليلي يرتكز على كشف سياق الآيات والربط بينها، مع مراعاة السياق التاريخي والاجتماعي للنصوص. كما يُظهر الكتاب اهتمامًا خاصًا بتوضيح المقاصد التشريعية للآيات، وهو ما يعكس إلمام ابن عاشور بعلم أصول الفقه الذي أثرى تفسيره بالمنهج المقاصدي.

وقد جعل ابن عاشور من تفسيره مشروعًا فكريًا يهدف إلى بيان صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، حيث اهتم بالقضايا الاجتماعية والفكرية التي تواجه الأمة الإسلامية. ومن هنا، يُعد "التحرير والتنوير" تفسيرًا يتجاوز كونه كتابًا للعلماء، ليكون دليلًا حضاريًا للمسلمين في استيعاب قيم القرآن وتطبيقها.

اعتمد ابن عاشور في تفسيره على مجموعة متنوعة من المصادر التي أثرت عمله، وشملت مؤلفات تفسيرية، لغوية، وبلاغية.

منهج ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير

رأي ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير أن يكون منهجه قائما من خلال ثلاثة محاور رئيسة: التفسير بالمأثور، التفسير بالرأي، والتفسير المقاصدي. والمنهجية تعني الخطة العلمية الموضوعية التي يتبعها المفسر لإيضاح آيات القرآن

الكريم. وهي قائمة على أسس وقواعد علمية تتجلى في أساليب تطبيقية محددة[١]. وعلى هذا الأساس، تُعرَف منهجية التفسير عند ابن عاشور بأنها الخطة العلمية التي سار عليها في تفسيره للقرآن الكريم، معتمداً على مجموعة من القواعد التي يمكن ملاحظتها في تفسيره.

منهج ابن عاشور في التفسير المقاصدي:

- التأثير المقاصدي في تفسير ابن عاشور

تميز تفسير ابن عاشور بنزعة مقاصدية واضحة. منذ مقدمات تفسيره، حدد المقصد الأعلى للقرآن الكريم بأنه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية[٢]. ركز على:

- إصلاح الاعتقاد.
- تهذيب الأخلاق.
- التشريع وإقامة نظم اجتماعية عادلة.
- بيان الإعجاز القرآني ودلالاته.
- تطبيق المنهج المقاصدي

استخدم ابن عاشور المقاصد لفهم النصوص التشريعية والآيات الكونية. فعلى سبيل المثال، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]، اعتمد تفسيره على الربط بين النصوص والمقاصد العلمية، مع مراعاة الهدف التربوي والتوجيهي للنصوص.

وأكد أن تفسير القرآن لا يقتصر على بيان المعاني اللغوية، بل يشمل استخراج الكليات التشريعية.

---

[١] تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٣، ٢٠٠٨، ص١٦.

[٢] الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور، رشواني سامر عبد الرحمن، الفكر الاسلامي المعاصر، عدد ٢٣، (يناير-٢٠٠١)، ص٨٨.

وهناك علاقة بين النصوص والمقاصد،ويرى ابن عاشور أن النصوص القرآنية تجمع بين مقصد الموعظة ومقصد التشريع، مما يجعلها مصدراً لاستنباط الأحكام والقواعد العامة.

استلهم مفهومه للمقاصد من الشاطبي، حيث رأى أن استجلاء الإرادة الإلهية من النصوص يتطلب التأمل الدقيق والتأويل المقاصدي.

وقد تميز بعمق علمي، دقة في النقل، ورؤية تجديدية تعكس سعة اطلاع مصنفه. يعتبر تفسير التحرير والتنوير ميداناً خصباً للبحث والدراسة، ومرجعاً قيماً للتعرف على منهجية التفسير المتكاملة.

المبحث الثاني: الاسترجاع مواضعه ومقاصده عند ابن عاشور.

المطلب الأول: الاسترجاع الصريح ومقاصده.

النص القرآني:قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾ البقرة: ١٥٦

يفسر ابن عاشور قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ بأن هذه الجملة شعارٌ للصابرين تُقال عند حلول المصيبة لتجديد معنى العبودية لله وتذكير النفس بأن كل ما نال الإنسان فهو ملك لله يتصرف فيه كيف يشاء((١)).

<u>أولًا: خلاصة استرجاع ابن عاشور في الآية:</u>

يقرر أن قوله: ﴿إِنّا لِلّهِ﴾ اعترافٌ بالملك التام، أي نحن مملوكون لله تصرّفًا وخلقًا وشرعًا، واللام هنا لام الملك لا مجرد الاختصاص، ويبيّن أن التوكيد بـ«إنّ» مناسب لـ«مقام المصيبة» لأن وقع البلاء قد يُنسي العبد حقيقة عبوديته لله، فكأن المصاب يُنزَّل منزلة من يُنكر هذا المعنى، فيحتاج إلى تأكيده في نفسه بالاسترجاع.

ويفسر قوله: ﴿وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ بأن المراد الرجوع إلى حكمه وجزائه يوم القيامة، فالمصير إلى الله تمثيل للمصير إلى أمره وحسابه، كما في قوله تعالى: ﴿

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ص٥٣، ج٢.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ النور: ٣٩ ، وينبّه إلى أن تقديم الجار والمجرور «إليه» يفيد قصرَ المصير على الله، أي لا مرجع حقيقي في الحساب والجزاء إلا إليه، مما يربط قلب المصاب بالآخرة لا بالانتقام الدنيوي أو الاعتراض على القدر.

ثانيًا: التعليق والتوجيه:

جعل ابن عاشور الاسترجاع ذكرًا مركّبًا يجمع بين تقرير العبودية (إنا لله) واستحضار المعاد (إنا إليه راجعون)، لا مجرد لفظ تعزية، ربطُه بين التوكيد بـــ«إنّ» وبين حالة الاضطراب النفسي للمصاب لفتة نفسية تربط البلاغة بحال المخاطب؛ فالمصاب في حال صدمة يحتاج إلى تأكيدات تعيد إليه وعيه الإيماني، وتفسيره للرجوع بأنه رجوع إلى حساب الله وحكمه يجعل الاسترجاع ليس فقط تسليمًا قدريًا، بل استحضارًا لمنظومة العدالة الأخروية التي تعوّض ما فات وتخفف حدة الألم. وهذا بُعد مقاصدي واضح، وإن جاء في سياق التفسير.

ثالثًا: ربط الآية بعلم المقاصد عند ابن عاشور:

ابن عاشور في «مقاصد الشريعة الإسلامية» يقرر أن الشريعة وُضعت لحفظ نظام الأمة((١))واستدامة صلاحها بجلب المصالح ودرء المفاسد((٢))، مع اعتبار الفطرة ورفع الحرج وتحقيق السكينة الاجتماعية. ربط ذلك بالآية يظهر في الآتي:

١. مقصد تثبيت الإيمان والعبودية:

الاسترجاع يرسخ مقصد توحيد الربوبية والملك؛ فالعبد يعيد تعريف نفسه عند المصيبة: «أنا مملوك لله»، وهذا من أعظم مقاصد العقيدة التي يكثر ابن عاشور من إبرازها في تفسيره، وهذا التثبيت العقدي يُنتج صبرًا راسخًا، وهو ما يطابق ما قرره في مواضع أخرى من أن الشريعة تقصد «تربية المؤمن على عبودية دائمة في السراء والضراء».

٢. مقصد حفظ النفس من الانهيار النفسي:

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والوزيع، القاهرة، ط ٥، ١٤٣٣ هـــ، ٢٠١٢م، صـــ ٨١، وما بعدها.

(٢) التحرير والتنوير: ص٣٨١، ج١.

من جهة المقاصد النفسية، الاسترجاع آلية شرعية لوقاية النفس من الجزع والاعتراض، وبالتالي حفظ كيان الإنسان من الانهيار؛ وهذا داخل في حفظ النفس من جهة «المعنوي» لا المادي وحده، والربط بين المصيبة وبين ملكية الله المطلقة وعدله في الرجوع إليه يخفف من الاحتقان الداخلي، ويمنع الانزلاق إلى السخط أو الانتحار المعنوي أو العدوان على الغير، وهو ما يدخل في مقصد «حفظ النظام الاجتماعي والنفسي» الذي يوسّعه ابن عاشور في تنظيره المقاصدي.

٣. مقصد التربية على الصبر والرضا:

الآية في سياق: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، وابن عاشور يجعل الاسترجاع علامة على الصبر الشرعي لا مجرد تحمل قهري. فالصبر هنا مبني على وعي عقدي (إنا لله) ومعادي (إنا إليه راجعون)، وفي نظرية المقاصد عنده، الصبر خلقٌ مقصود شرعًا لأنه يحفظ تماسك الفرد والمجتمع، ويتيح الاستمرار في عمارة الأرض رغم الابتلاءات، وهذا من مقاصد «استدامة الصلاح» و«نفوذ التشريع واحترامه» التي لخّصها الباحثون من كلامه.

٤. مقصد تصحيح رؤية البلاء في منظومة التشريع:

ابن عاشور يربط البلاء في تفسيره بمنهج تربية إلهي للاستخراج عبودية العبد في كل الأحوال، والاسترجاع يحوّل البلاء من كونه نقمة محضة إلى كونه موقف اختبار وتزكية، وهو ما ينسجم مع ما بيّنه في المقاصد من أن الشريعة تقصد تهذيب النفس وتكميلها، لا مجرد تنظيم الظاهر.

٥. مقصد تهذيب الشعور بالملكية والحقوق:

قول العبد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ يعيد تعريف علاقته بالأشياء (مال، أهل، صحة) على أنها أمانات، لا ملكيات مطلقة، وهذا له بعد مقاصدي في تهذيب التعلق بالدنيا وتقليل النزاعات حولها، وهذا المعنى يخدم مقاصد كبرى عند ابن عاشور مثل: احترام نظام الملكية مع تقييده بالتكليف، وبناء روح التضامن وعدم الطغيان بالنعمة.

المطلب الثاني: الاسترجاع الضمني ومقاصده.

١ – النص القرآني: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٨٦

يفسر ابن عاشور خاتمة سورة البقرة بأنها جماعُ أحكام الدين وتفويضٌ مطلق إلى رب العالمين، حيث ينتقل السياق من التشريع (لا يكلف الله) إلى التضرع (ربنا ولا تحمل علينا)، ويرى في قوله ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ اعترافًا بالولاية المطلقة لله الذي يتولى أمر عباده، وهو ما يلتقي في جوهره مع معنى "إنا لله وإنا إليه راجعون."((١)) كما وصف ابن عاشور.

أولًا: خلاصة تفسير ابن عاشور للآية (من منظور التسليم والاسترجاع الضمني): يقرر ابن عاشور أن افتتاح الآية بنفي التكليف فوق الطاقة هو أصلٌ في "رفع الحرج" وسماحة الشريعة، ثم ينتقل إلى الدعوات التي ختمت بها السورة، معتبرًا إياها تلقينًا من الله لعباده كيف يخاطبونه في ملماتهم. ويرى أن تكرار النداء بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات في الآية هو استشعار لربوبية الله التي تقتضي التربية والملك والرعاية، وهو ما يوازي معنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾. أما قوله: ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾، فيفسره ابن عاشور بأن "المولى" هنا هو السيد المالك والناصر، واعتراف العبد بذلك هو تفويضٌ للأمر إليه، أي: أنت وليُّنا وسيدنا ونحن عبيدك، فتولَّ أمرنا. وهذا المعنى هو عينُ الاسترجاع المعنوي؛ إذ فيه إقرار بالملك (أنت مولانا) وطلب للمصير الحسن (فانصرنا/وارحمنا).

ثانيًا: التعليق والتوجيه

ربط ابن عاشور بين "رفع الحرج" التشريعي وبين "الدعاء" التعبدي في نسق واحد؛ لبيان أن العبد مهما بُذل له من التخفيف، يظل مفتقرًا إلى مولاه. واللمحة البلاغية النفسية هنا تكمن في الانتقال من الخبر (لا يكلف الله) إلى الإنشاء والطلب

(١) التحرير والتنوير: ص٤٣٣، ج٢.

(ربنا ولا تحمل...)؛ فالمؤمن عند الشدائد لا يكتفي بعلمه أن الله عادل، بل يحتاج إلى تفعيل رابطة العبودية عبر الدعاء. وقوله ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ يمثل قمة الاستقرار النفسي؛ فكأنه يقول: "بما أنك مالكنا ومدبر أمرنا، فنحن مطمئنون لحكمك"، وهذا يحقق نفس الأثر النفسي للاسترجاع (إنا لله)، حيث يذوب القلق البشري في بحر التسليم للمولى الحق.

ثالثًا: ربط الآية بعلم المقاصد عند ابن عاشور:

انطلاقًا من رؤية ابن عاشور المقاصدية التي تركز على "حفظ النظام" و"السماحة"، يمكن تحليل الآية كما يلي:

١ **.مقصد رفع الحرج وتقرير السماحة:** قوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هو العمدة عند ابن عاشور في تقرير مقصد "السماحة" في الشريعة. فالله لم يقصد تعذيب النفوس بالتكاليف، بل تهذيبها. واستحضار هذا المعنى عند الشدائد (بمنزلة الاسترجاع) يطمئن العبد أن هذا البلاء الواقع هو في حدود قدرته (وسعه)، مما يمنع اليأس ويعين على الصبر.

٢ **.مقصد تحقيق العبودية والافتقار (التوحيد):** التركيز على نداء ﴿رَبَّنَا﴾ وختامه بـــ ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ يرسخ مقصد العبودية الطوعية. فكما أن "إنا لله" إقرار بالملك، فإن "أنت مولانا" إقرار بالولاء الكامل. وهذا يحقق مقصد الشريعة في تحرير الإنسان من عبودية الأسباب أو الخوف من المخلوقين، وحصر الاعتماد على الله وحده.

٣ **.مقصد حفظ النفس بالتوازن بين الخوف والرجاء:** الدعاء بـــ ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ و﴿اغْفِرْ لَنَا﴾ يعالج القلق الناتج عن التقصير البشري. فابن عاشور يرى أن الشريعة تلاحظ الضعف البشري (النسيان والخطأ)، وشرعت الدعاء والتوبة كصمامات أمان نفسية تحفظ الإنسان من جلد الذات المدمر، وتعيده إلى دائرة الرجاء والعمل، وهو مقصد نفسي واجتماعي هام.

٤ **.مقصد استدامة الصلاح عبر المسؤولية الفردية:** في قوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يقرر ابن عاشور مبدأ المسؤولية والجزاء. وهذا يرتبط بمقصد العدالة؛

فالمصيبة أو التكليف ليس عبثًا، بل هو ضمن ميزان دقيق (كسب واكتساب). هذا الوعي يجعل "الاسترجاع/التسليم" مبنيًا على فهم لسنن الله، لا على جبرية عمياء.

٥. **مقصد حفظ الأمة ونصرة الدين:** ختام الآية ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ينقل السياق من الفرد إلى الأمة. فالتسليم لله واللجوء إليه (أنت مولانا) ليس حالة دروشة وانعزال، بل هو مقدمة لطلب القوة والتمكين. وهذا يخدم مقصد ابن عاشور الأعظم وهو "حفظ نظام الأمة" وعزتها؛ فالعبودية لله وحده تحرر الأمة من التبعية لغيره وتؤهلها للنصر.

٢ – **النص القرآني** :قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ ..... ﴾ الأعراف: ١٥٦

السياق : جاءت الآية في سياق دعاء موسى عليه السلام بعد الرجفة التي أخذت النفر الذين اختارهم، وبعد قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾. يرى ابن عاشور أن هذا الدعاء يمثل "موقف الاسترجاع" العملي، حيث ينتقل العبد من وقوع البلاء إلى التسليم ثم إلى طلب العوض والرحمة من الله، منطلقًا من قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا((١)).

أولًا: خلاصة رأي ابن عاشور

(موقف الاسترجاع والاعتراف بالحكمة) :يرى ابن عاشور أن دعاء موسى ﴿وَاكْتُبْ لَنَا...﴾ بعد حلول المصيبة (الرجفة) هو تطبيقٌ لمعنى الاسترجاع وإن لم يذكر لفظه. يفسر قوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ بأنه طلبٌ لتثبيت الخير وتحقيقه، وكأن موسى يطلب من الله أن يجعل العاقبة خيرًا بعد هذا البلاء .ويركز ابن عاشور في هذا الموضع (الجزء ٩) على أن "موقف الاسترجاع" ليس مجرد ترديد للسان، بل هو حالة قلبية قوامها ركنان ذكرتهما في الاقتباس:

الاعتراف بالعبودية :ويظهر في التسليم بأن ما حدث هو فتنة الله واختباره (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ).

(١) التحرير والتنوير: ص ١٢٣، ج٩.

الإقرار بالحكمة :ويظهر في اليقين بأن الله لا يفعل ذلك عبثًا، وأن بيده التعويض بالحسنة في الدارين، ولذلك عقب بطلب "الحسنة ."ويشير إلى أن جملة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (أي رجعنا إليك) هي تعليلٌ لهذا الطلب، وهي تفيد معنى "إنا إليك راجعون" في التوبة والإنابة واللجوء عند الشدائد.

ثانيًا:التعليق والتوجيه:

يبرز ابن عاشور هنا بُعدًا "تفاعليًا" للاسترجاع؛ فالمصيبة لا ينبغي أن تُقابل بالجمود، بل بحراك إيماني (دعاء وطلب) .الربط بين (الاسترجاع) وبين (طلب الحسنة في الدنيا والآخرة) توجيهٌ نفسي رفيع؛ فالمصاب قد يزهد في الدنيا بسبب الألم، أو يسخط على القدر، فيأتي هذا الدعاء ليعيد التوازن: "يا رب، سلمنا لك في المصيبة، ونطمع في كرمك بالحسنة ."وعبارة ابن عاشور: "موقف الاسترجاع... هو الإقرار بالحكمة" تعالج أزمة "السؤال عن الشرور"؛ فالمؤمن المسترجع يوقن أن وراء ألم المصيبة حكمةً إلهية، وهذا اليقين هو الذي يدفعه للدعاء والرجوع (هدنا إليك) بدل القنوط والشرود عن الله.

ثالثًا: ربط الآية بعلم المقاصد عند ابن عاشور

مقصد جلب المصالح ودرء المفاسد (شمولية الحسنة) :طلب ﴿حَسَنَةً﴾ في الدنيا والآخرة يخدم المقصد العام للشريعة عند ابن عاشور وهو "جلب المصالح". فالاسترجاع هنا ليس استسلامًا للضرر، بل هو وسيلة لاستجلاب مصلحة بديلة تعوض ما فات. وتنكير "حسنة" يفيد العموم، أي كل ما يصلح به حال الإنسان في معاشه ومعاده، وهو لب مقاصد الشريعة.

مقصد التربية على التوبة والإنابة (هدنا إليك) :يربط ابن عاشور بين المصائب وبين مقصد "التذكير والتربية". فالمصيبة (الرجفة) أيقظت في النفوس معنى التوبة، فكان قولهم ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ تحقيقًا لمقصد العبودية الطوعية التي تنشأ عن الشعور بالحاجة والاضطرار، وتصحيح المسار فور وقوع الخطأ أو البلاء.

مقصد الجمع بين خيري الدنيا والآخرة (التوازن) :يؤكد ابن عاشور دائمًا أن الشريعة الإسلامية ليست شريعة رهبانية تهمل الدنيا، ولا مادية تهمل الآخرة. ودعاء

موسى (الذي هو نموذج للمؤمنين) يجمع بين الحسنيين. والاسترجاع هنا يخدم هذا التوازن؛ فهو يعالج مصيبة الدنيا بطلب العوض الدنيوي (حسنة في الدنيا) والجزاء الأخروي (وفي الآخرة).

مقصد الثقة في الحكمة الإلهية (السكينة):اقتباس ابن عاشور "الإقرار بالحكمة" يشير إلى مقصد عقدي ونفسي؛ وهو حماية العقل المسلم من العبثية. فالمصائب في نظر المقاصد الشرعية ليست عشوائية، بل تجري وفق "نظام" و"حكمة". إدراك المصاب لهذا المعنى (عبر الاسترجاع) يحقق "السكينة" التي هي من مقاصد الشريعة الكبرى لحفظ العقل والنفس من التشتت والانهيار.

مقصد الولاية الإلهية (أنت ولينا):السياق العام للآيات يتضمن قوله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾. والاسترجاع هو تفعيل لهذه الولاية. فمن مقاصد العقيدة أن يشعر المؤمن بأنه في حماية "ولي" قدير وحكيم. وهذا الشعور بالولاية هو الذي يحول المحنة إلى منحة، ويجعل المؤمن يطلب "الكتابة" (واكتب لنا) أي التثبيت والقرار المكين من وليه ومالك أمره.

٣ – **النص القرآني** : قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ النساء: ٧٨

السياق: جاءت الآية في سياق الرد على المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين كرهوا القتال خوفاً من الموت، وكأن القعود سيمنع عنهم الأجل. يرى ابن عاشور أن استحضار حتمية الموت يجب أن يقود المؤمن إلى التسليم، وهذا التسليم هو جوهر "الاسترجاع"، الذي يحول الخوف المرضي إلى طمأنينة عقدية((١)).

أولًا: خلاصة رأي ابن عاشور

(الاسترجاع وتطهير النفس من الرهبة) يقرر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية أن الموت حقيقة حتمية تدرك الإنسان ولو تحصن في الحصون المنيعة. ويربط بين

(١) التحرير والتنوير: ص ٢٥٢، ج٢٧.

هذا الإدراك وبين "عقيدة الاسترجاع"، معتبرًا أن المؤمن إذا أيقن أن الموت ملاقيه لا محالة، وأن مرجعه إلى الله، هان عليه وقعه. ويشرح ذلك: "ومقام الاسترجاع عند الموت مقام عظيم في الإسلام يطهر النفس من الرهبة"، بأن الاسترجاع هنا ليس مجرد قول باللسان عند نعي ميت، بل هو "حالة شعورية" يستحضرها الحي عند الخوف من الموت، فيذكّر نفسه بأنه "مِلكٌ لله" (إنا لله) وأن مصيره "الرجوع إليه" (وإنا إليه راجعون). هذا الاستحضار ينزع من النفس "الرهبة" (الخوف الشديد) لأنه يغير مفهوم الموت من "فناء مرعب" إلى "رجوع إلى المالك الرحيم"[1].

ثانيًا: التعليق والتوجيه

ربط ابن عاشور بين (حتمية الموت) وبين (وظيفة الاسترجاع النفسية) يعد معالجة دقيقة لداء "الجبن" و"القلق الوجودي". فالنفس البشرية تميل للهروب من الموت (أينما تكونوا)، ولكن الاسترجاع يواجه هذه الغريزة بتهذيب إيماني؛ فبدلًا من الهروب العبثي، يتم التسليم المطمئن. وقوله "يطهر النفس من الرهبة" يشير إلى أن الخوف المفرط من الموت هو نوع من "النجاسة المعنوية" أو "المرض" الذي يعيق الإنسان عن أداء واجباته (كالجهاد أو قول الحق)، فيأتي الاسترجاع بمثابة "تطهير" وعلاج يعيد للنفس توازنها وشجاعتها، فالمملوك لا يخشى العودة إلى سيده.

ثالثًا: ربط الآية بعلم المقاصد عند ابن عاشور

١- **مقصد حفظ العقل والنفس من الأوهام:** الخوف من الموت غالبًا ما ينشأ عن وهم الخلود أو وهم القدرة على الفرار. تقرير الآية ﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ يكسر هذا الوهم، والاسترجاع يبني "العقلية الواقعية" للمؤمن. وهذا يخدم مقصد الشريعة في بناء عقول لا تعيش في الأوهام، ونفوس متصالحة مع حقائق الوجود، مما يحفظ "الصحة النفسية" للفرد.

---

[1] راجع: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى : ١١٨٨هـ)، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، مؤسسة قرطبة – مصر، ط٢ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م، ٢ / ٢٥٩ وما بعدها.

٢ -**مقصد الشجاعة والإقدام (حفظ نظام الأمة):** بما أن الآية نزلت في سياق الحث على الجهاد والنهي عن الجبن، فإن "تطهير النفس من الرهبة" عبر الاسترجاع يخدم مقصدًا عظيمًا هو "بث الشجاعة" في الأمة. فالأمة التي يخاف أفرادها الموت لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا حفظ دينها. فكان الاسترجاع وسيلة مقاصدية لتحرير الإنسان من الجبن، ليتمكن من القيام بواجبات الدفاع والحماية.

٣ **مقصد تصحيح مفهوم الملكية والحرية:** الاسترجاع يرسخ مبدأ أن الإنسان لا يملك حياته ملكية مطلقة، بل هي عارية مستردة. هذا الوعي المقاصدي يهذب "حب البقاء" الغريزي، ويجعل الإنسان مستعدًا لبذل النفس في سبيل الله (المالك الحقيقي)، وهو ما يعبر عنه ابن عاشور بمقاصد "بذل المهج في إقامة الحق."

٤. **مقصد التسليم للسنن الكونية (رفع الحرج):** محاولة الفرار من الموت تضع الإنسان في "حرج" وضيق وعناء نفسي لا ينتهي، لأنه يصارع حقيقة قاهرة. الاسترجاع يحقق مقصد "رفع الحرج" عن طريق التصالح مع سنة الموت الكونية، فيعيش الإنسان حياته دون قلق دائم من نهايتها، موقنًا أن توقيت الرجوع بيد الله، مما يمنحه "سكينة" تعينه على عمارة الأرض ما دام حيًا.

(١) **النص القرآني** :قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ ﴾النحل: ٧٠

السياق: تأتي الآية في سياق الامتنان بآيات الله في أطوار الخلق البشري، من الإيجاد إلى الفناء. يربط ابن عاشور بين هذه الحقيقة القدرية (الموت والفقد) وبين "الاسترجاع" كأداة شرعية للتعامل مع الفواجع، موضحًا أن الاسترجاع ليس سكونًا سلبيًا، بل هو عملية "تهذيبية" نشطة للنفس البشرية((١)).

أولًا: خلاصة رأي ابن عاشور (الاسترجاع وإلجام النفس)

يرى ابن عاشور أن تتابع الخلق والوفاة في الآية يدل على أن الوجود البشري محكوم بإرادة إلهية محضة، وهذا يستدعي من المؤمن أن يتهيأ للفقد بالاسترجاع.

(١) التحرير والتنوير: ص ٢١١، ج١٤.

ويشرح الاقتباس المذكور: "والاسترجاع مع إلجام النفس بشكر الله والثقة بحكمته..." بأن حقيقة الصبر لا تتحقق بمجرد قول "إنا لله"، بل بما يسميه "إلجام النفس"؛ أي كبح جماحها عن التسخط والاعتراض، تمامًا كما يُلجم الفرس الجامح. ويرى أن هذا الإلجام لا يكون قسريًا مؤلمًا إلا إذا صاحبه:

الشكر: استحضار نعم الله التي سبقت المصيبة.

الثقة بالحكمة: اليقين بأن الموت (الوفاة) هو انتقال لدار الجزاء وليس انعدامًا محضًا.

إدراك الخير الخفي: البحث عن الأجر والمقاصد التربوية الكامنة في البلاء.

ثانيًا: التعليق والتوجيه

استخدام ابن عاشور لمصطلح "إلجام النفس" يعكس دقة بليغة في فهم الطبيعة البشرية؛ فالنفس عند فقد الأحباب تجمح نحو الحزن المفرط أو الاعتراض، والاسترجاع هو "الرِباط" الذي يربطها بالواقع الإيماني.

يربط ابن عاشور بين (الاسترجاع) و(الشكر) في آن واحد، وهي لفتة عالية؛ فالمؤمن يسترجع لأنه مملوك لله، ويشكر الله على ما بقي من نعم وعلى ما أعده من أجر للصابرين، وهذا يقلب حالة "الفقد" من سلب محض إلى حالة "عطاء" إلهي غير مباشر.

توجيهه لـــ "إدراك ما وراء البلاء من خير" ينقل المؤمن من ضيق "اللحظة الحاضرة" (ألم الفقد) إلى سعة "المآل" (إنا إليه راجعون)، مما يجعل الاسترجاع ركيزة للصحة النفسية والاستقرار القلبي.

ثالثًا: ربط الآية بعلم المقاصد عند ابن عاشور

١ .**مقصد تهذيب القوة الغضبية والجزعية:** من مقاصد الشريعة عند ابن عاشور "تهذيب الأخلاق". الاسترجاع هنا يعمل كمقصد تربوي لتهذيب انفعالات النفس عند المصيبة، فيمنعها من الجزع المذموم ويحولها إلى "صبر جميل"، وهو ما يخدم مقصد استقرار الفرد والمجتمع أمام الهزات الوجدانية.

٢ .**مقصد الثقة في تدبير النظام الإلهي:** الآية تبدأ بـــ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، وهذا يشير إلى "نظام" ثابت. الاسترجاع يحقق مقصد "التسليم للنظام الكوني"؛ فالموت ليس

خروجًا عن النظام، بل هو جزء منه. إدراك هذا المقصد يمنع الإنسان من الشعور بالظلم أو العبثية عند فقد أحبابه.

٣. **مقصد حفظ العقل من التشتت والذهول:** عند المصائب الكبرى، قد يذهل العقل ويضطرب. الاسترجاع بآلياته (الشكر، الثقة، الحكمة) يحقق مقصد "حفظ العقل" من الانهيار تحت ضغط الحزن، ويعيده سريعًا إلى دائرة الوعي والعمل، بدلاً من الغرق في حالة من الانقطاع عن الحياة.

٤. **مقصد التوازن بين الفطرة والتكليف:** ابن عاشور يراعي "الفطرة" دائمًا. الشريعة لا تمنع الحزن الفطري، لكنها تطلب "إلجام" الجموح منه. الاسترجاع هو المقصد الذي يوازن بين حق النفس في الحزن وحق الله في التسليم، وهو ما يجسد وسطية الإسلام في التعامل مع المشاعر الإنسانية.

٥. **مقصد ربط الخلق بالمعاد (استدامة الصلاح):** الآية تجمع بين الخلق والوفاة، والاسترجاع يربط بينهما بالرجوع إلى الله. هذا الربط يخدم مقصد "تذكير الإنسان بمآله" لئلا يطغى في حال القوة (الخلق) ولا ييأس في حال الضعف (الوفاة/أرذل العمر)، مما يؤدي إلى استدامة الصلاح الأخلاقي للفرد في جميع أطوار حياته.

(٢) **النص القرآني** :قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٣ – ٨٤

السياق: يعرض ابن عاشور نموذج أيوب عليه السلام كأعلى مراتب الصبر البشري. ويرى أن نداء أيوب لربه يمثل "روح الاسترجاع"؛ فهو لم يشتكِ الله إلى خلقه، بل فرّ من الله إليه، محققًا بذلك التسليم المطلق والاعتراف بالملك والحكمة في حال الضر كما في حال النعمة((١)).

أولًا: خلاصة رأي ابن عاشور (الاسترجاع كقمة للعبودية):

(١) التحرير والتنوير: ص ١٢٥، ج ١٧.

يرى ابن عاشور أن الاسترجاع في قصة أيوب لم يكن مجرد قول "إنا لله"، بل كان "موقفًا كليًا" استغرق سنوات البلاء. ويشرح الاقتباس المذكور: "وكان أيوب يسترجع في بلائه ولا يجزع... والاسترجاع هنا قمة العبودية" بأن العبودية الحقة تظهر حين تُسلب النعم؛ فالمؤمن الذي يسترجع عند المصيبة يعلن أن صلته بالله ليست "مصلحية" (مرتبطة بالنعمة فقط)، بل هي صلة "مملوك بمالك". ويشير إلى أن قول أيوب ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هو غاية الأدب في الاسترجاع؛ إذ استحضَر صفة الرحمة في عزّ الشعور بالألم، وهذا هو "الإقرار بالحكمة" الذي يجعل الاسترجاع قمة العبودية.

ثانيًا: التعليق والتوجيه:

يلفت ابن عاشور النظر إلى أن الاسترجاع النبوي (نموذج أيوب) يتميز بـــ "عدم الجزع" مع وجود "الألم الفطري"؛ فالاسترجاع لا يعني موت الإحساس، بل يعني "ترويض" هذا الإحساس ليظل تحت سقف الرضا.

وصفُه للاسترجاع بأنه "قمة العبودية" يرفع هذا الذكر من مرتبة "العادة" أو "التعزية الاجتماعية" إلى مرتبة "العبادة الوجودية"؛ فالمسترجع يثبت صدق إيمانه في أصعب الاختبارات (فقد المال، والولد، والصحة).

الربط بين نداء أيوب وبين الاسترجاع يوضح أن "الدعاء بطلب كشف الضر" لا ينافي الاسترجاع، بل هو جزء منه؛ لأن العبد يرجع إلى مولاه ليطلب الفرج، معترفًا بأنه هو المالك الوحيد للنفع والضر.

ثالثًا: ربط الآية بعلم المقاصد عند ابن عاشور:

١ **.مقصد تهذيب الأخلاق بصبر الأنبياء:** من مقاصد القصص القرآني عند ابن عاشور "القدوة والتربية". فصبر أيوب واسترجاعه يخدم مقصد "تثبيت قلوب المؤمنين" وتهذيب أخلاقهم، ليعلموا أن البلاء ليس علامة هوان على الله، بل هو "مقام عبودية" رفيع، مما يحفظ تماسك الفرد المؤمن أمام كوارث الدهر.

٢ **.مقصد إثبات كمال القوة الإلهية والرحمة:** في تعقيب الآية ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ بعد طول بلاء، يبرز مقصد "ترسيخ الثقة بالوعد الإلهي". الاسترجاع هنا هو "الاستثمار

المقاصدي" للمصيبة؛ فبالصبر والاسترجاع نال أيوب رحمة مضاعفة ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، وهذا يعلم الأمة أن مآل الصبر هو الصلاح والتمكين.

٣ **.مقصد حفظ العافية النفسية عبر "الأدب مع الله":** يبرز ابن عاشور أدب أيوب في عدم نسبة الضر لله صراحة بل قال ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ (بصيغة المبني للمجهول في المعنى أو نسبة المس للضر نفسه). هذا الأدب المقاصدي في الاسترجاع يحمي النفس من "السخط الخفي" ويجعل العبد في حالة "تصالح" مع ربه، وهو مقصد ضروري لحفظ السلام الداخلي للإنسان.

٤ **.مقصد استدامة العبادة في جميع الأحوال:** الشريعة تهدف إلى إقامة "العبودية المستدامة". نموذج أيوب يثبت أن الاسترجاع هو الوسيلة المقاصدية لتحقيق العبادة في "حال الضر"، كما أن الشكر هو الوسيلة في "حال النعمة". وبذلك يتحقق مقصد "استغراق الأوقات بالعبادة" فلا يخرج المؤمن عن طاعة الله في أي ظرف.

٥. مقصد "الذكرى للعابدين": الآية ختمت بـــ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾. يرى ابن عاشور أن من مقاصد التشريع "التذكير الدائم بالسنن". فالاسترجاع في قصة أيوب أصبح "قانونًا إيمانيًا" (سنة) لكل من يعبد الله، ليعلم أن طريق العبودية محفوف بالابتلاء الذي لا يُجتاز إلا ببوابة "إنا لله وإنا إليه راجعون" فعلاً وحالاً.

٤- **النص القرآني** :قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ..... فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾يوسف: ١٨ ، وقوله:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾يوسف: ٨٦).

السياق: يتناول ابن عاشور موقف يعقوب عليه السلام عند تلقي خبر فقد يوسف، ثم بنيامين[١]، معتبرًا أن "الصبر الجميل"[٢] هو الحالة الأسمى للاسترجاع. فالاسترجاع بالمعنى هو رد الأمر لله عند الصدمة الأولى واستدامة هذا الرد طيلة أمد البلاء.

(١) التحرير والتنوير: ص ٣٨، ١٣.

(٢) التحرير والتنوير: ص ٤١، ١٣.

أولًا: خلاصة رأي ابن عاشور (الصبر الجميل كاسترجاع حالي)

يرى ابن عاشور أن "الصبر الجميل" هو الصبر الذي لا شكوى فيه للخلق، وهو بهذا المعنى يتطابق مع جوهر الاسترجاع (إنا لله)؛ لأنه اعتراف بأن المصاب مِلك لله، فلا معنى لشكوى المالك إلى غيره. ويفسر قوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ بأنها كلمة تفويض توازي في قوتها ومقصدها قوله "إنا إليه راجعون"؛ فالمستعان هو المرجع والملجأ. ويرى أن استرجاع يعقوب لم يكن مجرد صمت، بل كان "استرجاعاً إيجابياً" يقترن بالرجاء؛ فاليقين بالرجوع إلى الله (إنا إليه راجعون) ولّد عنده يقيناً برجوع يوسف إليه ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

ثانيًا: التعليق والتوجيه:

يلفت ابن عاشور النظر إلى لفتة نفسية عميقة: الصبر الجميل هو الذي "يُجمل" النفس في عيون الحق والخلق؛ فلا تنهار كرامة العبد بالجزع، ولا يسيء الأدب مع ربه بالتسخط.

ربط ابن عاشور بين (الاسترجاع) و(الشكوى إلى الله) في قوله ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ليوضح أن الاسترجاع لا يناقض الحزن البشري أو ذرف الدموع، بل يناقض "الاعتراض على القدر"؛ فالبث والحزن حين يُرفع إلى الله يكون استرجاعًا، وحين يُرفع إلى الناس يكون جزعًا.

" الصبر الجميل" عند ابن عاشور هو استرجاع "ممتد عبر الزمن"؛ فالعبد يسترجع عند وقوع المصيبة (الاسترجاع اللفظي) ، ويستمر في حال الاسترجاع (الصبر الجميل) حتى ينكشف البلاء.

ثالثًا: ربط الآية بعلم المقاصد عند ابن عاشور:

١ .مقصد حفظ الكرامة الإنسانية (جمال الصبر): من مقاصد الشريعة عند ابن عاشور "تكميل النفوس". الصبر الجميل (الاسترجاع المعنوي) يحفظ على المصاب وقاره وكرامته، ويمنعه من السقوط في مهانة الشكوى لغير الله. هذا التكميل الأخلاقي هو مقصد ضروري لبناء شخصية مؤمنة صلبة لا تكسرها الحوادث.

٢ .مقصد "الرجاء" وقطع دابر "اليأس": ابن عاشور يشدد على أن الاسترجاع يفتح باب الرجاء. فقوله ﴿إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ تعني أن الأمور ستؤول إلى الله الرحيم. هذا يخدم مقصد الشريعة في "بث الأمل" ومنع القنوط، وهو ما تمثل في قول يعقوب ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾. فالاسترجاع هنا آلية مقاصدية لمحاربة اليأس السوداوي.

٣ .مقصد حفظ العقد الاجتماعي والأسري: في قصة يعقوب، كان الصبر الجميل وسيلة لحفظ تماسك الأسرة رغم الجرم الذي ارتكبه الأبناء. الاسترجاع (رد الأمر لله) منع يعقوب من الانتقام أو القطيعة التي كانت ستدمر الأسرة تمامًا. وهذا يصب في مقصد "حفظ نظام العائلة" و"الإصلاح" الذي يركز عليه ابن عاشور.

٤ .مقصد تفعيل العبودية في حالة "الغيّب": البلاء في قصة يوسف كان غيبياً (لا يُعرف مصيره). الاسترجاع هنا يحقق مقصد "الإيمان بالغيب" والثقة في التدبير الإلهي الخفي. ابن عاشور يرى أن الشريعة تقصد تربية العبد على التسليم لله فيما لا يدركه عقله، والاسترجاع هو الترجمة العملية لهذا المقصد.

٥. مقصد نوال "البشارة" الربانية: يربط ابن عاشور بين فعل يعقوب (الصبر والاسترجاع بالمعنى) وبين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. فالمقصد النهائي من تشريع الاسترجاع والصبر هو تهيئة العبد لاستحقاق "البشرى" والجزاء الأوفى، وهو ما تحقق ليعقوب باجتماع شمله بيوسف في نهاية الرحلة.

الخاتمة

الحمد لله رب العلمين، له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على النبي الأمين رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين.

في ختام هذا البحث، وباستخدام المنهج المقرر في خطته، استطاعت جمع، ودراسة الاسترجاع، ومقاصده عند الطاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير، وتبين من خلال دراسة هذه المقاصد التالي:

أولًا: النتائج:

- اهتم الشيخ الطاهر ابن عاشور بعلم بمقاصد الشريعة اهتمامًا كبيرًا، ويظهر ذلك من خلال ربطه لتفسير الآيات بمقاصد الشريعة.
- تبين من خلال البحث أهمية الاسترجاع، وما يجب علي الإنسان عندما يعرض له ما كتبه عليه من الأقدار والمصائب.
- ربط ابن عاشور الاسترجاع بجل مقاصد الشريعة.

ثانيًا: التوصيات.

من خلال جمع ودراسة الاسترجاع، ومقاصده عند الطاهر ابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير في هذه الدراسة، اتضحت بعض القضايا والمسائل العلمية التي تحتاج إلى مزيد من الدرس ويوصى الباحث بالنظر فيها، ومنها ما يلي:

١ – دراسة التفسير المقاصدي للقرآن الكريم ابن عاشور أنموذجًا.

٢ – القواعد المقاصدية عند الإمام ابن عاشور.

٣ – الفكر المقاصدي عند الإمام ابن عاشور.

قائمة المصادر والمراجع

- الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور، رشواني سامر عبد الرحمن، الفكر الاسلامي المعاصر، عدد ٢٣، (يناير-٢٠٠١).
- الإعلام لخير الدين الزر كلى، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، ط ١٥، ٢٠٠٢م.
- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي (٧١٧ - ٨٨٥ هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، ط١، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
- الذخيرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت ٦٨٤هـ)، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط١، ١٩٩٤ م.
- السنن الكبرى : لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، الطبعة الأولى ، بحيدر آباد ، الدكن بالهند ، سنة ١٣٥٥هـ.
- العناية شرح الهداية محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين البابرتي الناشر: دار الفكر الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
- المجموع شرح المهذب»، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة التضامن الأخوي – القاهرة، ١٣٤٤ - ١٣٤٧ هـ .
- الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الطبعة: (من ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ),
- المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ٢٠٩.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، ت أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية - بيروت، ط ١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بـ «بملك العلماء» (ت ٥٨٧ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٣٢٧ - ١٣٢٨ هـ.
- تاج العروس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الزَّبيدي المحقق: الناشر: دار الهداية (٢١/ ٧٦)، الصحاح للجوهري، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
- تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ (المتوفى: ١٤٠٨ هـ)دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط ٢، ١٩٩٤ م، ج ٣.
- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٣، ٢٠٠٨، ص١٦.
- تفسير ابن كمال باشا، شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي الحنفي (ت ٩٤٠ هـ في القسطنطينية)- تحقيق ماهر أديب حبوش، مكتبة الإرشاد، إسطنبول – تركيا، ط١، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – السعودية، ط١، ١٤٣١ هـ.
- حاشية الصاوي على الشرح الصغير = بلغة السالك لأقرب المسالك أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي المالكي الناشر: دار المعارف الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ .
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.
- سنن أبي داوود : للإمام أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تعليق عزت عبيد الدعاس، طبعة دار الحديث – حمص.
- سنن الترمذي: للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق : كمال يوسف الحوت ، ط١، ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح صحيح مسلم، أبو زكريا يحي بن شرف النووي، دار ابن رجب، القاهرة، ط ١، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨م.
- صحيح البخاري، (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م.
- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت،ط٣، ١٤١٤ هـ.
- محمد الطَّاهر ابن عاشُور، علَّامة الفقه وأُصوله والتَّفسير وعُلومه، إياد خالد الطَّباع، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ط١، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
- مختار الصحاح للرازي، ، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
- مسند أحمد، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط ٢، ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢م.
- معجم لغة الفقهاء محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والوزيع، القاهرة، ط ٥، ١٤٣٣ هـ، ٢٠١٢م.
- من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، د بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
- موسوعة التفسير المأثور، إعداد: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية إشراف أ. د. مساعد بن سليمان الطيار – د. نوح بن يحيى الشهري، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي- دار ابن حزم – بيروت، ط١، ١٤٣٩ – ٢٠١٧.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٥م